

أيام الطواف

لا يدهشك أيها القارئ أن نضع لعبث ابن أبي ربيعة هذا
العنوان الغريب ، فقد كان يتخذ أيام الحج موسماً للهو والمجون ،
وإنه ليقول

أيها الراح المجدُّ ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطاراً
من يكن قلبه صحيحاً سليماً ففؤادي بالخيف أمسى مغاراً
ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجةً واعتماراً^(١)
وقد أنشد ابن أبي عتيق هذا الشعر فقال له : الله أرحم بعباده أن
يجعل عليهم ما سألته ليتيمَّ لك فسقك ! وأنشده عبد الله بن عمر فقال :
يا ابن أخي ! أما اتقيت الله حيث تقول :

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجةً واعتماراً
فقال له عمر : بأبي أنت وأمي ! إني وضعت ليتنا حيث لا تغني .
بيد أنه لا يصح لنا أن ننسى أنه لم يكن يفوز في كل مرة بما ينبغي

(١) قال عمر هذا الشعر في أم عمرو بنت مروان وكانت بعثت إليه بألف دينار
ورجته أن لا يذكرها في شعره ، فقبلها واشترى بها طيباً فأهداه إليها فردته ، فقال
إذاً والله أنهبه الناس ، فيكون مشهوراً ، فقبلته

شيطانه من زيارة تلك المناسك والتعرض لكرائم النساء . فقد روى أن امرأة جميلة قدمت مكة ، فنظر اليها وهو يطوف فوقعت في قلبه ، فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه . فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها ، فقالت له : اليك عنى يا هذا فانك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمه ! فألح عليها يكلمها حتى خافت أن يشهرها . فلما كانت الليلة الاخرى قالت لأخيها : أخرج معى فأرني المناسك فاني لست أعرفها ، فأقبلت وهو معها ، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها ، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها ، فتمثلت المرأة بقول النابغة .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتنق صولة المستأسد الحامى
وقد قال المنصور حين حدث بهذا الخبر : وددت أنه لم تبق فتاة من قريش فى خدرها إلا سمعت بهذا الحديث



وقد وقع له مثل هذا مع أبى الاسود الدؤلى إذ حجّ ومعه امرأته ، وكانت جميلة ، فبينما هى تطوف بالبیت إذ عرض لها ، فانتأب الاسود فأخبرته ، فأناه أبو الأسود فعاتبه . فقال له عمر : ما فعلت شيئاً . فلما عادت إلى المسجد عاد فكلمها . فأخبرت أبأ الاسود فأناه فى المسجد وهو مع قوم جالس فقال له :

وإني لثنييني عن الجهل والخنأ وعن شتم أقوامٍ خلأئقُ أربعُ
 حياءُ وإسلامٌ وبُقيأ وأنى كريمٌ ومثلى قد يضر وينفع^(١)
 فشتان ما بينى وبينك انى على كل حال أستقيم وتطلع^(٢)
 فقال له عمر : لست أعود يا عم لكلامها بعد هذا اليوم . ثم عاود

فكلمها ، فأأت أبأ الاسود فأخبرته ، فجاء اليه فقال له :

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى وسيدنا لولا خلأئقُ أربعُ
 نُكُولٌ عن الجُلَى وقرب من الخنا

وبُخلٌ عن الجدوى وأنك تُبَعُّ^(٣)

ثم خرجت وخرج معها أبو الاسود مشتملا على سيف ، فلما
 رأها عمر أعرض عنها ، فتمثل أبو الاسود

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتنى صولة المستأسد الحامى
 وإن له لحوآث أشنع من هاتين فى الضياع ، فقد رأى امرأة من
 العراق وهو يطوف فأعجبه جمالها ، فشبى معها حتى عرف موضعها ، ثم
 أتأها فآادثها وناشدها وناشده ، وخطبها فقالت : ان هذا لا يصلح
 ها هنا . ولكن إن جئتنى إلى بلدى وخطبتنى إلى أهلى تزوجتك . فلما

(١) البقيا : هى الرحمة والاشفاق (٢) الظلع : العرج والغمز فى المشى

(٣) التبَعُّ والتَّبَعُّ هو الذى يجدد فى طلب النساء

ارتحلوا جاء إلى صديق له من بني سهم وقال له : إن لي إليك حاجة أريد أن تساعدني عليها . فقال له : نعم ، فأخذ يمدد ولم يذكر له ما هي . ثم أتى منزله فركب نجيباً له وأركبه نجيباً آخر ، وأخذ معه ما يصاحبه ، وسارا لا يشك السهمي في أنه يريد سفر يوم أو يومين ، فما زال يسرع حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم يحدث المرأة طول طريقته ويسايرها ، وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق . فاقام أياماً ثم راساها يتنجزها وعدها ، فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم وبماله اليها ما لم تتزوج ، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة ، وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت ، فردها عليها ورحل إلى مكة ، وقال في ذلك :

نام صحي ولم أنم	من خيال بنا ألم
طاف بالرَّكب مؤهناً	بين خاخٍ إلى إاضم ^(١)
ثم نهبت صاحباً	طيب الخيم والشيم ^(٢)
أريحياً	مُساعداً غير زكس ولا برَم ^(٣)

(١) خاخ : موضع بين الحرمين - واضم : واد بجبل تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة (٢) الخيم بالكسر السجية - والشيم جمع شيمة وهي الطبيعة (٣) النكس بالكسر الضعيف - والبرم بفتح تين الذي لانفع فيه

(١٣٣)

قلت يا عمرُ و شَفَّنِي لَاعِجُ الحُبِّ والألم
إِتِرْ هَنداً فقل لها ليلة الخيف ذى السَّامِ (١)

* * *

ويظهر أن الخيبة التي رمتها بها تلك السيدة العراقية جعلته يتردد في متابعة الملاح إلى العراق . فقد تشبَّهت فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية أن يتبعها ليتزوجها هناك ، ولم نعلم أنه هَشَّ لتلبية ذلك النداء . ومن قصته معها أنها حجت فراسلها ووعدا أن يتلقاها مساء الغد ، وجعل الآية بينه وبينها أن تسمع ناشداً يَنشُدُ بغلته في زقاق الحاج ، ان لم يمكنه أن يرسل رسولا ، يُعَلِّمُهَا بمصيره إلى المكان الذي وعدها .

فلما تلاقيا وتحادثا خطبها فقالت : أما هاهنا فلا سبيل إلى ذلك ، ولكن إن قدمت إلى بلدى خاطبا تزوجتك . وقد قال في وصف ما كان بينهما من التراسل والتواعد والتلاق :
تَشْطُ غَدًا دارَ جيراننا وَلَدَارُ بَعْدِ غَدٍ أَبْعَدُ

(١) لم نقف على بقية هذه القصيدة

إذا سلكت غمر ذى كندة^(١) مع لركب قصد لها الفرق^(٢)
 عراقية^(٣) وتهاى الهوى يغور^(٤) بمكة أو ينجد^(٥)
 وحث الحداة بها غيرها سراجاً إذا ما نأت تطرد^(٦)
 هنالك إمّا تمزى الفؤاد وإما على إثرها تكمد^(٧)
 وليست يبدع إذا دارها نأت والمزاة إذا أجالد^(٨)
 صرمت وواسات حتى نام ت أين المصادر والمورد^(٩)
 وجربت من ذلك حتى عرف ت ما أنوقى وما أعمد^(١٠)
 دعائى من بعد شيب القذا ل رثم له عنق^(١١) أغيد^(١٢)
 وعين تصابى وتدعو الفتى لما تركه للفتى أرشد^(١٣)
 فتلك التى شيعتها الفتاة إلى الحدر قابى بها مقصد^(١٤)
 تقول وقد جد من بينها غداة غدير عاجل^(١٥) مؤفد^(١٦)
 ألت مشيعنا ليلة نقضى اللبابة أو نعهد^(١٧)
 فقلت بلى قل^(١٨) عندى لكم كلال المطى إذا تجهد^(١٩)

(١) غمر ذى كندة : موضع وبراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين - الفرق
 نجمان في السماء من نجوم الدب الأصغر وهى في الشمال ، ويقال لها الفرق بالافراد
 والفرقدان بالثنائية ، ومعنى أن الفرق قصد لها أنها تتجه اليه ، لان العراق في الشمال الشرقى
 من مكة (٢) يغور : يأتى الغور وهو المظمئن من الارض - وينجد : يأتى النجد
 وهو ما غلظ من الارض وارتفع (٣) الحداة : ساقه الابل الذين يتغنون لها
 لتنشط في السير - وتطرد : تساق (٤) القذا كسحاب جماع مؤخر الرأس

فعودى إليها فتولى لها مساء غدٍ لكم موعد
 وآية ذلك أن تسمى إذا جئتم ناشداً ينشد
 فرحنا سراعاً وراح الهوى إليها دليلاً بنا يقصد
 فلما دنونا لجرس النبا ح والضوء والحي لم يرقدوا^(١)
 نأينا عن الحي حتى إذا تودع من نارها الموقد^(٢)
 وناموا بعثنا لها ناشداً وفي الحي بغية من ينشد
 أتننا تهادى على رقبة من الخوف أحشاؤها ترعد^(٣)
 تقول وتظهر وجداً بنا ووجدى وإن أظهرت أوجد
 لما شقائي تعلقتم وقد كان لي عنكم مقعد^(٤)
 وكفت سوابق من عبدة على الخد جال بها الإثم^(٥)
 فان التي شيعتنا الغداة مع الفجر قلبي بها مقصد^(٦)
 وقد جاء في خبره مع فاطمة هذه انه لما جاءها أرسلت بينها وبينه

(١) الجرس بالفتح الصوت (٢) تودع الموقد: خبت ناره وانطفأت
 (٣) تهادى: تمايل في خفة ولين - والرقبة: الحذر والخوف (٤) كان لي مقعد
 عنكم: كان لي عنكم غنى (٥) الإثم: حجر السكل (٦) مقصد: مقتول .
 من قولهم: رماه فاقصده اذا قتله مكانه .

قال أبو حية النيرى :

رمين فأقصدن القلوب ولم تجد دماً مائراً الا جرى في الحيازيم

سترا رقيقاً تراه من وراءه ولا يراها ، فجعل يحدتها حتى استنشده ،
فأنشدها هذه القصيدة ، فاستنفذها الشعر فرفعت السجف ، فرأى
وجهها حسناً في جسم نازحل ، فخطبها ، وأرسل إلى أمها وكانت معها
بخمسمائة دينار ، فأبت وحجبتها ، وقالت للرسول : لا تعد إلينا . فتم
ذلك الفتاة ، فقالت لها أمها : قد قتلك التواجد به ، فترؤجيه !

قالت : لا والله ، لا يتحدث أهل العراق عني أني جئت ابن
أبي ربيعة أخطبه . ولكن ان أتاى إلى العراق تزوجته .

ويقال أنها راسلته وأوعده أن تزوره فأجر بيته وأعطى المبرر
مائة دينار . فأنته وواعده إذا صدر الناس أن يشيعها ، وجعلت
علامة ما بينهما أن يأتيها رسوله ينشدها ناوة له ضات . فلما صدر
الناس فعل . وقد قال في وصف ذلك

قال الخليل غداً تصدُّعنا أو بعده أفلا تشيعنا ^(١)

أما الرحيل فدون بعد غدٍ ففى تقول الدار تجمعنا ^(٢)

لتشوقنا هندٌ وقد علمت علماً بأن البين يفزعنا

(١) الخليل : الخيرة الاعزاء الذين يخلطهم الحب بنفسه والتصدع : التفرق

(٢) تقول : معناها نظن في هذا البيت

عجباً لموقفنا وموقفها وبسمع ترّيبها تراجعنا^(١)
ومقالها سرّ ليلة معنا نعهد فان البين فاجعنا^(٢)
قلت العيون كثيرة معكم وأظن أن السير مانعنا
لا بل نزورك بأرضكم فيطاع قائلكم وشافعنا
قلت أشي أنت فاعله هذا لعمرك أم تخادعنا
بالله حدث ما تؤمله واصدق فان الصدق واسعنا
اضرب لنا أجلا نعد له إخلاف موعده تقاطعنا^(٣)

*
* *

وإنا لنعجب حين نرى الرجال يقدّرون مصير الحسان من
أهم فيهجرون مكة فراراً من ذلك الشاعر الخليع : فقد وُلِدَ
جل من بنى مُجَمَّح جارية لم يولد مثلاً بالحجاز حسناً . فقال : كأني
أوقد كبروت فشبب بها عمر بن أبي ربيعة وفضحها ونوّه باسمها
كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمت بمكة أفاع ضيعة له بالطائف

ترباها متى ترب بالكسروهي الحدينة - وتاربت الجارية الجارية خادتها . قال كثير
تتارب بيضا اذا استلعت كادم الظباء ترف الكباشا
نعهد : نأخذ عليك العهد والميثاق أن لا تنسانا بعد الفراق
نعد له : أي نحسب الايام لحلوله حتى اذا اخلفت قاطعناك

ومكة ورحل بابتته إلى البصرة ، فأقام بها ، وبتاع هناك ضيعة ،
ونشأت ابنته من أجل فساد زمانها .
ومات أبوها فلم تر أحداً من جميع حنسر جناتره ، ولا وجدت
مُسعداً ولا ، واسيئاً ، فقالت لمريض لما سوداء : من نحن ؟ ومن
أى البلاد نحن ؟ فخبرتها . فقالت : لا جرم ، والله لا أقمت في هذا
البلد الذى أنا فيه غريبة ، فباعت الضيعة والدار وخرجت في أيام
الحج ، وكان عمر يقْدَم في ذى الحجة فيعتمر ويحج ، ويابس ما شاء من
الحل والوشى ، ويركب النجائب المحضوبة بالحناء عليها القطاوع والدياج
ويرسل رايته . ويلتقى العرافيات فيما بينه وبين ذات عرق ثمحرمفت ،
ويبتقى المدينيات إلى مرّة ، ويتلقى الشاميات إلى الكديد . فخرج يوماً
للعرافيات فإذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تركب معها جارية
سوداء . فقال لسوداء : من أنت ؟ ومن أين أتيت يا خالة ؟ فقالت :
لقد أخطأ الله نعيمك إن كنت تسأل هذا العالم : من هم ومن أين هم ؟
فإن : فأخبرني عسى أن يكون تلك شأن . قالت : نحن من الدراق ،
فإنما الأصل ومنتشاً فمكة . وقد رجعنا إلى الأصل ورحلنا إلى بلادنا ،
فضحك ، فلما نظرت إلى سواد قديمتيه قالت : قد عرفناك . قال : ومن
أنا ؟ قالت : عمر بن أبي ربيعة ! قال : ويهم عرفتنى ؟ قالت : بسواد

ثنيتيك وبهيئتك التي ليست إلا لقريش ^(١) . فانشأ يقول
 أصبح القلب في الحبال رهينا مُقصداً يوم فارق الظاعينا
 عجبتُ حمةُ الفراق علينا برحيل ولم نخف أن تبينا ^(٢)
 لم يرعنى إلا الفتاة وإلا دمعتها في الرداء سجاً سينا ^(٣)
 ولقد قلت يوم مكة سرّاً قبل وشكٍ من بينكم نولينا ^(٤)
 أنت أهوى العبادِ قرباً ودلاً أو تنيلين عاشقاً محزوناً
 قاده الطرف يوم مرّ إلى الحية ن جهاراً ولم يخف أن يحينا ^(٥)
 فاذا نعمة تراعى نعاجاً ومهناً بهج المناظر عينا ^(٦)
 قلت من أنتم فصدت وقالت أميدٌ سؤالك العالمينا ^(٧)
 نحن من ساكني العراق وكنا قبله قاطنين مكة حيناً

(١) سواد ثنيتي عمر بن أبي ربيعة لم يكن طبيعياً ؛ وإنما عرض له حين ضربته الثريا
 بظاهر كفها ؛ وكان النساء اذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشر ، فاصابت الحواتيم ثنيتيه
 العاينين فنغضتا وكادت تسقطان فقدم البصرة فعولجتا له فثبتتا واسودتا ، فشاع خبره
 وعيره بذلك خصومه من الشعراء (٢) حمة الفراق بالضم ما قدر وقضى

(٣) سنين : متدفق (٤) الوشك : الاسراع (٥) الحين بالفتح الهلاك
 (٦) النعاج هنا بقر الوحش - والعين : الجليات العيون (٧) معنى عجز هذا
 البيت كما في اللسان : أمقسّم أنت سؤالك على الناس حتى تعهم ؟ من قولهم :
 أبدء المال والعطاء اذا فرقه في القوم . وهو معنى قولها له : لقد أطال الله تعبك
 ان كنت تسأل هذا العالم : من هم ومن أين هم

قد صدقناك إذ سألت فمن أذن ت عسى أن يجرّ شأن شوّونا
وزى أتنا عرفناك بالنه ت بظنّ وما قتلنا يقينا
بسواد الثنيتين ونعت قد نراه لناظر مستبيننا
ولم يزل بها عمر حتى تزوجها ، وولدت له .
ويقال إنه أنشأ هذه القصيدة في التشبيب برملة بنت عبد الله
الخزاعية ، وإن الثريا بنت عليّ لما سمعت بها هجرته ، في حديث سنعود
إليه بعد فصول



ولقد نعلم أن ملاح النساء كنّ يتحدثن عنه في مناسك الحج في
لهفة وشوق . وكان يقدر له أحيانا أن يسمع ما يلهمجن به من ارتقاب
غزله ، وانتظار لقياءه ، فيضطرم قلبه ، وتلتهب أحشاؤه ، كلفاً بمن
يتساقين على ذكره كؤوس النجوى والسرار . فقد روى أنه بصّر في
منصرفه من المزدلفة بامرأة جميلة في هودج ، وسمع عجوزاً معها تناديهما :
يا نوار استترى ، لا يفضحك ابن أبي ربيعة . فاتبعتها وقد شغلت قلبه
حتى نزلت بمني في مضرب قد ضرب لها ، فنزل إلى جانب المضرب ،
ولم يزل يتلطف حتى جالس معها وحادثها ، وإذا أحسن الناس وجهاً

وأحلام منطقاً ، فزاد ذلك في إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها فتعذر
ذلك عليه ، وكان آخر عهده ، فقال فيها

علق النوار فؤاده جهلاً وصباً فلم تترك له عقلاً
وتعرضت لي في المسير فما أمسى الفؤاد يرى لها مثلاً
ما ظبية^١ من وحش ذى بقر تغذو بسقط صريمة^(١) طفلاً
بالذَّ منها إذ تقول لنا وأردت كشف قناعها مهلاً
دعنا فانك لا مكارمةً تجزى ولست بواصل حبلاً
وعليك من تبل الفؤاد وإن أمسى لقلبك ذكره شغلاً

* * *

وفي الحق أن ابن أبي ربيعة لم يكن في حاجة إلى تصيُّد النساء ،
فقد كنَّ عليه أحرص ، وإلى تصيُّده أحوج ، وسنرى حين نعرض
لاخباره مع هند بنت الحارث وسكينة بنت الحسين كيف كانت تشقى
الرُّسل في البحث عنه كلما حنت معشوقاته الى وجهه المشرق ، وحديثه
الطريف ، فلنكتف الآن بالإشارة إلى تلك السيدة الاموية التي قدمت
معمرة قبل أوان الحج ، فمرت عليه وهي تطوف ، وكان في نفر من

(١) ذو بقر : واد بين أخيلة حمى الربذة - وسقط الصريمة . متهاها - والصريمة
الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر

بنى مخزوم ، يتحدثون وهم جاوس ، وقد فرغتهم طويلاً ، وجههم جمالاً
 وبهرهم بياناً ، قالت اليهم ، ونزلت فأطاعت معهم الحديث . ولم تنصرف
 حتى ظفرت بقباب ذلك الشاعر الجميل . ولم يزل يتردد إليها إلى أن
 انقضت أيام الحج فرحات إلى الشام . وفيها يقول

تأوب ليلى بنصب وهم^(١) وعاودت ذكرى لأثم الحسب^(٢)
 فبت أراقب ليل التما م ، من نام من عاشق لم أنم
 فأما ترينى على ما عرا ضعيف القيام شديد السقم
 كثير القلب فوق الفرا ش ما إن ثقل قيامى قدم
 بأنة طيب نشرها هضم الحشا عذبة المبتسم^(٣)

وفي هذه الحوادث التي سقناها غنى لمن أراد أن يُقدّر إلى أى
 حد كان ابن أبى ربيعة يتامس أسباب الهوى ويترقب مواسم الجمال ، وفي
 هذه الحياة المريحة ، الحافلة بفُرص اللهو ومُتَمِّع الشباب ، قال ذلك الشعر
 الحيّ الذى يوقظ غافيات المنى وهاجعات الالهواء . فلننتقل إلى الحديث
 عن طائفة من معشوقاته بشيء من التفصيل ليتم لنا ما أردنا من عرض
 الظروف التى قضت بأن يقف حياته على الحب ، وشعره على النساء^(٤)

(١) النصب بالفتح والضم : الشر - (٢) النشر الرائحة - وهضم الحشا

خامرة البطن (٣) أهم مرجع لهذا الفصل هو الجزء الاول من كتاب الاغانى